أمينة الخزينة "جوري قلفا"

مـع بالـغِ الأسـف فنحنُ لا نملك معلوماتٍ وافيـةً عن حياة "جوري قلفا"[١١٤]، لكنّ الشائـع أنّها من أصل شركسيّ[١١٥]، التحقت بخدمة القصر جاريـةً، وتولَّـتْ وظيفة المسـؤولة عن خزينة حريم السـلطان فـي الثامن العشـرين مـن يوليو/تمـوز عـام (١٨٠٨م)، وعُرفت بـ"جوري أوسـطى"، أي: رئيسـة الخـدم؛ إذ كان يُطلق على القائمين بتلـك الوظيفة "خزينة دار أوسطى"[١١٦].

ويبـدو أنّ وفـاة "جـوري قلفا" كانت قبيـل التاريخ المذكور بالشـطر الأخيـر من هذه العبارة: "اشـرب ماء زمزم على روح المرحومة أوسـطى (١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م)" المكتوبة على حوض السبيل بمدرسة أطفال شيّدها السلطان "محمود الثاني" مطلـعَ شارع "ديوان يولي بـ "حَيِّ السلطان أحمد" لتكون صدقةً على روحها.

(١١٤) قلفا: مديرة شؤون الجواري في قصر السلطان.

(١١٥) الشركس: هم مجموعة تشمل سكان شمال القوقاز من "أديغة" و"شيشان" و"آفار" و"لزجين" وغيرهم، كنتيجة للحروب التوسعية التي شنتها الإمبراطورية الروسية في المنطقة اضطر الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانية أو الروسية.

(١١٦) خزينة دار أوسطى: المسؤول عن خزينة حريم السلطان.

obeikandl.com

دُفِنت "جوري قلفا" بحيّ الفاتح في ضريح السلطانة "نَقْشِي دِلْ" -والدة السلطان "محمود الثاني"- على بُعد خمسين إلى ستّين مترًا من ضريح السلطان "محمد الثاني".

حركة التمرّد الكبيرة

بدأت حركة النظام الجديد -التي أولاها السلطان "**سليم الثالث**" اهتمامًا كبيرًا، واعتبرها بمثابةِ إعادة هيكلةِ مؤسّسات الدولة، والتي ازدهرت بعد عام (١٧٩٢م)،- بدأت في التزعزُعِ بسبب التمرّدات وردودِ الفعل المتزايدة بعد عام (١٨٠٥م).

بحلول مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، اندلعت حركةُ تمرُّدٍ هائل بتحريض وترتيب من قائم مقام الصدارة(١١٧) "كوسه موسى باشا" وشيخ الإسلام "عطاء الله أفندي"، وفي السابع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م) تجمَّع خمسمائة متمرّد عند "بيوك دره" في " ساريير(*Sariyar*)"، يتزعّمهم "قَابَقْجِي مصطفى شاووش" أحد المنتمين لمعسكر الإنكشاريّة، وساروا بمحاذاة الساحل حتى وصلوا إلى "طوب خانه"، ثمّ عبروا إلى **إسطنبول** بالقوارب، ووصلوا إلى حي "أَتْيَمَزْ *(Etyemez)*" وبها ثُكنات الإنكشاريّة، وتجاوز الحشد عشرةَ آلافٍ لما انضمَّ إليه معسكرا الإنكشاريّة و"جبجي" ورجال المدفعيّة، وملؤوا ميدانين بحيّ "السلطان أحمد"، وخرج الأمر عن نطاق السيطرة.

في التاسع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، خُلع السلطان "سليم الثالث" عن العرش، وتولّى مكانه السلطان "مصطفى الرابع" -ابن

(١١٧) قائم مقام الصدارة: هو لقب من ينوب عن الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- في أعماله.

عمّ السلطان سليم- الذي دعمَ الانقلاب من بداية ظهوره، ولعب دورًا مؤثّرًا في المؤامرات الْمَحُوكة على السلطان والنظام الجديد، وأُجبر السلطان السابق على الإقامة الجبرية في غرفةٍ بقصر "طوب قابي".

بعد عامٍ واحدٍ من الواقعة تحرّك "عَلَمْدَار مصطفى باشا" القائد العسكريُّ منً أجل إعادةِ السلطان "سليم الثالث" إلى العرش، وتحرَّك من مدينة "روسه"[١١٨] بغرض إحياء النظام الجديد مرّةً أخرى، وسار إلى إسطنبول بالقوات التي تخضَعُ لسيطرته، حتى وصل إلى أبواب قصر "طوب قابي".

حاكمٌ منحوسٌ

في تلك الأثناء أوعز المقربون للسلطان "مصطفى" وأقنعوه أنّ بقاءهُ على العرش العثمانيّ مرهونٌ بموتِ السلطان "سليم" والأمير "محمود"؛ فأصدر السلطان أمرًا مباشرًا بقتلِهما، ويبدو أنّ غرض السلطان من هذا الأمر هو ضمانُ استحالة خلعهِ، وبناءً على ذلك اقتحم الجنودُ بشراسةٍ غرفة السلطان "سليم"، ووقع ذلك الحاكمُ المنحوس على إِثْرِها قتيلًا، ووُضِعت جثَّته أمامَ غرفةِ العرض[١١٩].

في ذلك الحين كان "عَلَمْدَار مصطفى" على وشْكِ تحطيم باب السعادة[١٢٠]، في حين كان المحيطون بالسلطان "مصطفى" يبحثون

(١١٨) روسه: هى خامس أكبر مدينة في بلغاريا. تقع في الشمال مقابل الحدود الرومانية على نهر الدانوب وتبعد ما يقارب ثلاثمائة كم عن العاصمة "صوفيا".

(١١٩) غرفة العرض: القاعة التي كان يستقبل فيها السلطان الصدر الأعظم وأركان الديوان الهمايوني أيام تقديم المعروضات. سهيل صابان: ص ١٥٨.

(١٢٠) باب السعادة: يطلق عليه باب الأغوات البيض، ويتكون من بابين متداخلين، مقابل رواق يستند على عَمَد رخاميّة حيث يجلس فيه السلطان في مراسم الأعياد، سهيل صابان: ص ٤٨، ٤٩.

obeikandl.com

عـن الأمير "محمـود"؛ فلقد كان قصر "طوب قابي" في الثامن والعشـرين من يوليو/تموز عام (١٨٠٨م) يشهدُ واحدة من أفجـع أحداثه التاريخيّة.

دمُ السلطان سليم

تهافـتَ المتمـرّدون -البالـغُ عددُهـم تسـعة عشـر ومعهم اثنا عشـر "بوسـتانجيًّا"[١٢١] امتـلأت عيونهـم بالشـرّ- علـى بـاب "كـوش خانـه" بحريـم القصر شـاهِرين السـيوف بعد أن أبعـدوا المعلِّـم "لالا طيار آغا" عن طريقهم، ثمّ اسـترد المعلم لالا وعيَه، فأخذ معه اثنين من المساعدين وتعقَّـبَ القَتَلَـة، لكـن لكونهم من "أنـدرون" حفظـوا حرمـة "الحَرَمْلِكْ" ولـم يتجاسـروا علـى دخول الحـرم مثل أولئـك القَتَلَـةِ الذيـن لا يبالون بأيّـة حرمة، وإنما اسـتغاثوا بالخـدم الزنوج حراسِ الحريم: عنبر وقاسـم وحافـظ عيسـى كان الزنـوجُ الثلاثـة رجـالًا ضخامًا إلى حدٍّ مـا، عمالقة، أقوياء، فأشـهروا أسيافَهم بسرعة، وهُرعوا لإنقاذ السلطان "سليم" والأمير "محمود"، إلا أنّهم تأخّروا عن السلطان "سليم".

توجّهوا هذه المرّة إلى غرفة الأمير "محمود"، لكنّ السـلطان لم يكن هناك، فالأمير الشـابّ ذو الثلاثة وعشـرين عامًا تم تهريبُه بواسـطة جوري قلفـا إلى غرفـة بالدور العلويّ مـن "آلتن يول" -الغرفـة الخاصّة بجوري قلفا- ولما وصل الزنوج إلى السلم الحجريّ المؤدّي إلى الدور العلويّ، وصل القتلةُ أيضًا؛ فصاح "أَبَه سليم" -أحد رجال السلطان مصطفى-:

- أيّهـا الرجال، أفسـحوا الطريـق لئلّا يصيبكم الضـرر، فقد صدرت فتوى بإعدام الأمير.

(١٢١) "بوستانجي (*Bostancı*)": صنف من الإنكشاريّة مكلف بوظائف الأمن والحراسة في معسكر الإنكشاريّة.

فصاحَ "قاسم آغا" قائلًا:

- لن تستطيعوا المرور.

وزأرَ الزنجيّ "نذير" في "البوستانجيّة" قائلًا:

- لـمَ أنتـم واقفون؟ الأمير بالدور العلويّ! لا تتباطؤا في عملكم؟ هيّا بسرعة اقضوا عليهم!

تضاعفت وحشيّةُ الجُناة بعد أن تلطَّخت أيديهم بدماء السلطان سليم، وبينمـا كانوا ينقضّـون بهمجيّة على الخدم المتصدّيـن لهم، صعد الزنوج السـلّم وهم يتخطّونه بسـرعة فائقةٍ، وعلى حين اختار "قاسـم آغا" مكانًا مناسـبًا له عند الفسـحة العلويّة للسُّـلَّم، أخذ عنبر وحافظ عيسى مكانهما عند باب الغرفة، لكن إلى متى تستطيـع ثلاثةُ سيوف أن تصمدَ أمام تسعة؟ اسـتطاع "قاسـم آغا" أن يصمد أمام القتلة الغوغائييـن خمسَ دقائق فقط، لكن في النهاية أصبحَ أعلى السُّلَّم خاليًا بعد أن أُصيب "قاسم آغا" بحربةٍ أطلقها أحد البوستانجيّة[١٢٢].

معركة "جوري قلفا" ذات الرماد

فـي لحظـةٍ اندثر فيها كلّ شـيء ظهرت "جوري قلفا" وغيّرت مسـار الأحـداث، تلك الفتاة الشركسـيّة المديدة، القويّة الشـديدة، قفزت كنَمِرة حافيـة، وقـد اسـتثفرت[١٢٣]،كانت تحمل بيدها وعاء كبيـر مملوء بالرماد، فصرخت في "عيسى" و"عنبر" قائلةً:

(١٢٢) رشاد كرم أقجو، موسوعة إسطنبول، المجلد السابع، ص ٣٥-٢٣.

(١٢٣) أدخلت أطراف ثوبها في حزام تشد به خصرها.

- هيّا، لا تتوقّفوا، هرّبوا الأمير.

ثم أشارت إلى فتحةِ المدخنةِ قائلةً:

-إلى السقف، هيا بسرعة إلى السقف.

فصعدت إلى أعلى السلّم مسرعةً، وبدأت تنثرُ الرماد الساخن على وجوه القتلة الذين يصعدون من السلم على وجه السرعة، وأثناء ذلك الصخب توقّفَ الجناةُ عنوةً من كثرة الرماد الساخن الذي نَثَرَتْهُ جوري قلفا عليهم حتى أعمى عيونهم، وهذا ما أكسبَهم بعضًا من الوقت لكي يهربوا من أيدي القتلة، وكان الرجال الزنوج حينئذ يحملون الأمير محمودًا على أكتافهم، ويحاولون إخراجَه عبرَ المدخنة، أما جوري قلفا، فقد نَفِدَت قُواها كما نَفِدَ رمادُها أيضًا، ولما حاولت التراجُعَ خطوةً إلى الوراء، تدحرجت على الأرض إثرَ ركلةٍ في بطنها، وفقدت الوعيَ.

وصل إلى صحن السلّم أحدُ الجلادين الذي كان يُدعى "أبا سليم"، وكان قنّاصًا ماهرًا في الرمي بالسكين، فأطلق الخنجر بسرعة صوبَ الأمير محمود وهو على وشْك الصعود إلى السقف، فانغرز في ذِراعه، إلا أنّ الأمير نجح في بلوغ السطح.

نجاة الأمير

كانت الصرخات في القصر تزداد تدريجيًّا، حيث داهم "عَلَمْدَار مصطفى باشا" باب السعادة، ودخل القصر وإذا به أمام جثمان السلطان "سليم" خارج غرفةِ العرض، فانكبّ عليه، وبدأ يصرخ:

– واهًـا يـا سـيدي، بعد أن شـددتُ الرحـال، وقطعتُ هذه المسـافة من أجل إجلاسِك على العرش، إذا بعينيّ تراكَ على تلك الحالة، لأنتقمنّ ولأذبحنّ أولئك الخونة "أندرون"!

وعلى إثر كلماته هذه قاطعه "رامز أفندي" لينبّهه فقال:

– ليس هذا وقت البكاء على ما كان، ولا الأخذ بثأر مَن مات، الوقت ضيق، ودقيق جدًّا لإنقاذ الدولة، نرجو ألا يلحق الضرر بمولانا السـلطان محمود!

فأمر "عَلَمْدَار" من حوله من الجنود:

– ابحثـوا عـن مولانا السـلطان "**محمود**"، اصعـدوا للأعلى، حطّموا الأبواب[١٢٤].

ولمـا تزايدَتِ الجلَبةُ، تشـتّت قتلةُ السـلطان سـليم فـي أنحاء القصر جميعًـا طلبًـا للنجاة، وفي ظـلّ ذلك الهرج والمرج نجـا الأمير "محمود" و"جوري قلفا"...، ثمّ أُنزل الأمير الشابّ مِن على السطح، يتقدمه "حافظ أحمـد أفنـدي"، في حماية المعلم "لالا طيّار" و"محمد آغا" في المؤخّرة، وحينما اقتربوا من "عَلَمْدَار مصطفى باشا"، سأل الأخيرُ بلهجةٍ روميّة:

– من هذا؟

فأجاب "حافظ أفندي":

– مولانا السـلطان "محمود"، حان الدور لاستخلافه، أنا بايعته، وبقي لكم القيام بما فيه الخير والمصلحة.

(١٢٤) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص ١٠٧.

obeikandl.com

فاستجمع الباشا نفسه، وقال وهو يقبّل طرف ثوب السلطان:

- سيدي، لقد جئتُ إلى هنا لأصطحِبَ عمّك إلى العرش إلا أنني فوجئت بجثمانه وضاقت عليّ الأرض بما رحبت لأن عيني شاهدت هذا المنظر المؤلم ولا تقرّ عيني إلا اصطحاب سيادتك إلى العرش.

بعد تلك الكلمات تمّ تنصيبُ السلطان "محمود"، المصاب بجروحٍ خفيفةٍ أعلى حاجبه لارتطام جبينه بالحائط وفي ذراعه بالخنجر أثناء صعوده إلى السطح من النافذة العلويّة بغرفة "جوري قلفا".

وفاة "جوري قلفا":

لم يُقصّر السلطان بعد أن تولّى الحكم في تعظيم تلك المرأةِ الباسلةِ التي ساعدته وألقت بنفسها إلى التهلكة، فمنحها المكافآت القيّمة اللائقة بعظمة بطولتها، وعيّنها أمينة لخزانة الحرم السلطانيّ.

لم يكتفِ السلطان "محمود الثاني" بمنحها الوظيفة، بل أمر كذلك بإنشاء قصرٍ رائعٍ لها في حيّ "بُيُوكْ چَامْلِيجَه"، وخصّص لها ما حوله من الأراضي الشاسعة، علاوةً على ذلك فقد أمر بسحب ماء عينٍ ينبع من الأرض نفسها إلى "أسكودار"، وأسماه "جوري قلفا سُويي"[١٢٥] وأمر بإنشاء هذا السبيل في منطقة "إيجاديه" داخل حي "أسكودار" للناس.

وعلى إثر وفاتها عام (١٨١٨-١٨١٩م)، أمر السلطان "محمود" بإقامة مدرسة أطفال، وسبيل ماء على روحها وفاءً وعرفانًا بجميلِها.

(١٢٥) أي سبيل جوري قلفا.

تقعُ تلك المدرسة أمام جامع "فيروز آغا" أول شارع "ديوان يولي" بحيّ "السلطان أحمد"، وتحمل اسم "مدرسة جوري قلفا للأطفال"، وهذه المدرسة تُعدّ أكبر مدارسِ الأطفال بـ"إسطنبول" من حيث المساحة، وهي أثرٌ نادرٌ يتّسم بخصائص مختلفةٍ عن غيره من الأبنية، ويحمل آثار تيّارات الفنون الوافدة من الغرب من حيثُ عِمارته وتصميمه ووجهته.

ولقد كتب "كجهجيزاده عزت مولا" آخر الخطاطين العظام على باب المدرسة الرئيس منقوشًا بخط الرخام قصيدةً خلد في آخر بيت من أبياتها تاريخَ وفاة "جوري قلفا" حيث أشار إليه من خلال الأحرف الأبجدية بالطريقة العثمانية(١٢٦).

خدمت مدرسة "جوري قلفا" أطفالَ الدولة نحو أربعين سنة، ثمّ حُوّلت عام (١٨٥٨م) إلى مدرسة فنون للفتيات، وبعد إعلان الجمهوريّة استُخدمت مخزنًا لسجلّات رئاسة الوزراء، أي: دار محفوظات رئاسة الوزراء، وبدءًا من العام الدراسي (١٩٤٥-١٩٤٦م) تحوّلت مرّة أخرى إلى مدرسة ابتدائيّة، وخلال الثمانينيّات أُخْلِيَتْ المدرسة مدّة، وبعد عام (١٩٨٥م) خُصِّصَت لجمعيّة الأدب التركيّ.

(١٢٦) ونص البيت الأخير من قصيدة "عزت" الذي يخلد فيه تاريخ وفاة "جوري" هو:"مكتبيله روحي جوري اوتانك شادان اوله" حيث تشير الأحرف المنقوطة فيه إلى تاريخ وفاتها.

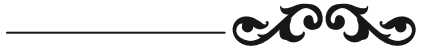

قائدٌ رابطُ الجأش لا يعرف معنى الخوف أو التردّد...

رجل الحروب وفارس الميادين..

لقد امتاز بما لا يتوفّر لدى كثيرٍ من القادة؛ إنها سرعة اتّخاذ القرار الصائب، ففي خضمّ المعركة يُصدر القرار المناسب في الوقت المناسب..

قال عنه قيصر الروس «ألكسندر»:

"لا يحزننَّك وقوعك في الأسر، فقد أدّيتَ ما عليك على الوجه الأكمل، وإني لأعدّ نفسي محظوظًا؛ لكوني حاربت قائدًا شجاعًا هُمامًا ذا فطنةٍ مثلك".

وقال عنه «جراندوق نيقولا» شقيق القيصر:

"أهنّئك بدفاعك؛ فقد كتبتَ واحدةً من أعظم الملاحم التاريخيّة".

إنه البطل «عثمان باشا»

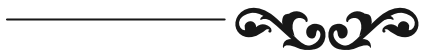

obeikandl.com